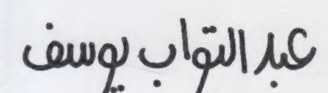
عظيمة يا مصر

وعشر قصص أخرى



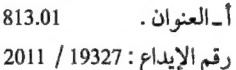
عبد التواب يوسف

الدار المصرية اللبنانية

عظيمة يا مصر

وعشر قصص أخرى

يوسف، عبد التواب .
عظيمة يامصر : وعشر قصص أخرى / عبد التواب يوسف
. ـ ط1. ـ القاهرة :الدار المصرية اللبنانية ، 2012.
104 ص ؛ 21 سم.
تدمك : 1 ـ 706 ـ 427ـ 977 ـ 978
1ـ القصص العربية القصيرة.
أ ـ العنوان . 813.01
رقم الإيداع : 19327 / 2011



16 عبد الخالق ثروت ـ القاهرة .
تليفون: 23910250 202 +
فاكس: 23909618 202 + ـ ص.ب 2022
E-mail:info@almasriah.com
www.almasriah.com

الطبعة الأولى : صفر 1433 هـ ـ يناير 2012 م

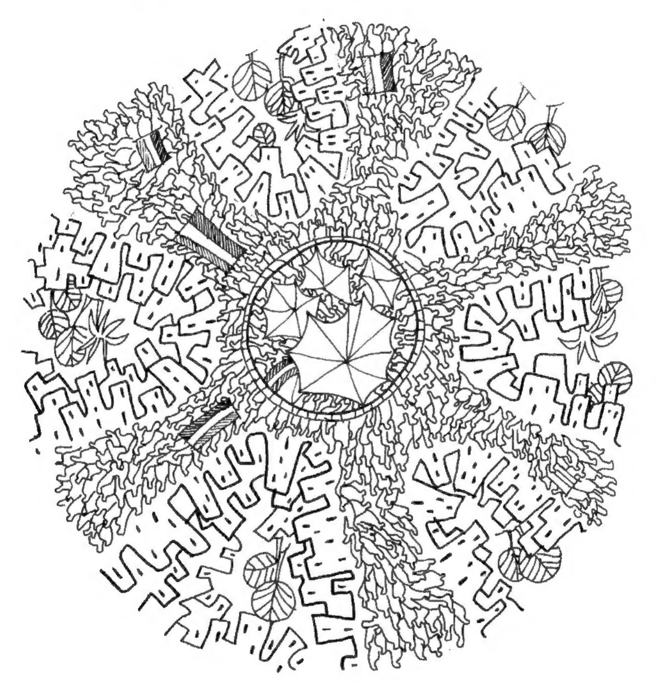
عظيمة يا مصر

وعشر قصص أخرى

عبد التواب يوسف

الدار المصرية اللبنانية

ميدان التحرير



ميدان التحرير

هي مجرد مساحة من الأرض
أعبرها ذهابًا وإيابًا ..
جيئة وعودة ..
لم أتوقف عندها ..
مالي اليوم ما إن أطل عليها
حتى أراها تموج بالبشر .. زرعوا فيها حقل ذرة يتماوج
أراهم .. أسمعهم ..
أنظر إليها وإليهم في إجلال
صارت حرمًا قاهريًا ..

هل سمعتم باسم « موشي ديان » ؟

كان هذا الرجل إرهابيًّا صهيونيًّا ، يضع على عينيه عصابة سوداء مثل القراصنة ، وهو الذي قاد الجيش الإسرائيلي في 5 يونيو 1967 في حرب عدوانية على البلاد العربية ، فاحتل أرض سيناء المصرية، وهضبة الجولان السورية ، والضفة الشرقية من نهر الأردن الفلسطينية، والقدس .. وله مذابح شهيرة ، يفخر بها ، مع أنها أبشع ما شهدته الإنسانية .

وقد كتب مذكراته ؛ في غرور كبير ، حكى فيها عن بطولاته الكاذبة، وخططه العسكرية التي وضعها للانتصار على العرب ، قالوا له : لماذا تكشفها ؟

قال : العرب لا يقرأون .. قالوا له : أمة اقرأ لا تقرأ ؟

قال : نعم .. المصريون غير قادرين على تنظيم المرور في ميدان التحرير..

ورحل – غير مأسوفٍ عليه – ذلك الإرهابي قبل أن يعرف أن الشباب نظم من هذا الميدان – لا المرور فحسب – بل أول وأعظم ثورة في تاريخ البشرية : 25 يناير 2011 .

- 1 -

قليلون منكم يا أبنائي ويا أحفادي – يعرفون أن هذا الميدان كان اسمه ميدان الإسماعيلية – نسبة إلى الخديوي إسماعيل – وكان هذا قبل ثورة 1952 وأيام حكم أسرة محمد علي لمصر .. وكان جانبه يطل على النيل مباشرة ، وأقيمت على ضفته ثكنات للجيش البريطاني المحتل .. ولم يكن هناك كورنيش للنيل في هذا المكان ، ولا عند السفارة البريطانية الذي امتد سورها إلى ضفة النهر ..

وفي عام 54 ، 1964 بعد الحرب العالمية الثانية عمت البلاد انتفاضة قوية ، وقامت معارك بين شباب جامعة فؤاد الأول – جامعة القاهرة الآن – وبين الإنجليز ، وفي 21 فبراير 1964 قتلت عرباتهم العسكرية ثمانية من شبابنا حين اجتاحتهم في مظاهرة في هذا اليوم ، وقد جعل منه العالم «يوم الطالب» أو عيده ، واحتفلوا به في كل الدنيا ، واضطر الإنجليز إلى الجلاء عن القاهرة ، وغادروا ثكنات قصر النيل ، وأصبح الميدان يسمى : ميدان الإسماعيلية ، ووضعت فيه قاعدة ضخمة لكي يقف عليها تمثال لإسماعيل باشا ، بجانب ثلاث قواعد أخرى ؛ واحد أمام جامعة فؤاد ليقف عليها تمثال له ، وأخرى أمام قصر عابدين من أجل تمثال لمحمد علي باشا ، وثالثة أظنها لتوفيق !

- 2 -

وكان هناك – ومازال – تمثال إبراهيم باشا ، لكن يشاء الله ألا يقف تمثال على القواعد الأربع في ميادينا .. وقام بناء جامعة الدول العربية على ضفة النيل مكان الثكنات ، بعد أن كانت في مبنى صغير قرب باب اللوق .. وعندما أردنا أن ننشئ كورنيش النيل القائم الآن وكان ذلك بعد ثورة يوليو ، ورفضت السفارة البريطانية أن تترك ضفة النهر ، فما كان من «عبد اللطيف بغدادي» – عضو مجلس ثورة 52 – إلا أن هدد بإرسال بلدوزر لهدم سور السفارة ، وطالبوا بثمن الأرض التي سيقام عليها الكورنيش لأنها أرض «بريطانية» ، وقدروا لها مبلغًا يعجزنا دفعه أيامها ، تصوروا أن ندفع لإنجلترا ثمن أرضنا .. واضطروا للرضوخ وأنشئ الكورنيش وصار الميدان يقال له «قصر النيل» إلى أن أطلق عليه ميدان التحرير ، وتطل عليه دار الآثار المصرية ، ومجمع التحرير والجامعة الأمريكية التي كانت مقرًّا سابقًا لجامعة فؤاد أو القاهرة .. ورفعت منه قاعدة التمثال الذي حدثناكم عنه أثناء الحفر لمترو الأنفاق .. وقام فيه مسجد باسم البطل عمر مكرم ..

هذا هو الميدان الذي عيَّرنا موشي ديان بأننا غير قادرين على إدارة حركة مرور السيارات فيه .

- 3 -

وفجأة نظم شبابنا في ميدان التحرير – لا المرور – بل ثورة ، دوت في أرجاء دنيانا ، وفي عالمنا العربي . كنا في حرب 73 قد طمسنا العين الثانية لموشي ديان كما قالوا في إسرائيل ، بعد أن أثبتت قواتنا المسلحة أنها تقرأ ، وتقاتل ، وتعبر وتنتصر ..

وقالوا عن شبابنا الذي قاد ثورة 25 يناير 2011 والذي التحمت به قواتنا المسلحة ، وحمته في ميدان التحرير ، كما نشرته صحيفة المصري اليوم في 17 فبراير 2011 .

قال الرئيس الأمريكي أوباما :

- علينا أن نربي أولادنا ليكونوا مثل الشباب المصري .

وقال رئيس وزراء بريطانيا كاميرون :

- علينا أن نفكر جديًّا في تدريس الثورة المصرية في مدارسنا .

وقال رئيس وزراء إيطاليا برليسكوني :

- لا جديد في مصر : المصريون يقومون بكتابة التاريخ كالعادة .

وقال رئيس النمسا هاينز فيشر :

- المصريون هم أروع شعب على الأرض ويستحقون جائزة نوبل للسلام .

وقال رئيس وزراء النرويج ستو :

- كلنا مصريون .

وقالت قناة سي إن إن الإخبارية الأمريكية :

- لأول مرة نجد شعبًا يقوم بثورة وينظف الشوارع من بعدها .

وهذا ما نشرته صحيفة (المصري اليوم) :

- نعم : هذا هو المصري اليوم .. حقًّا وصدقًا .

◆

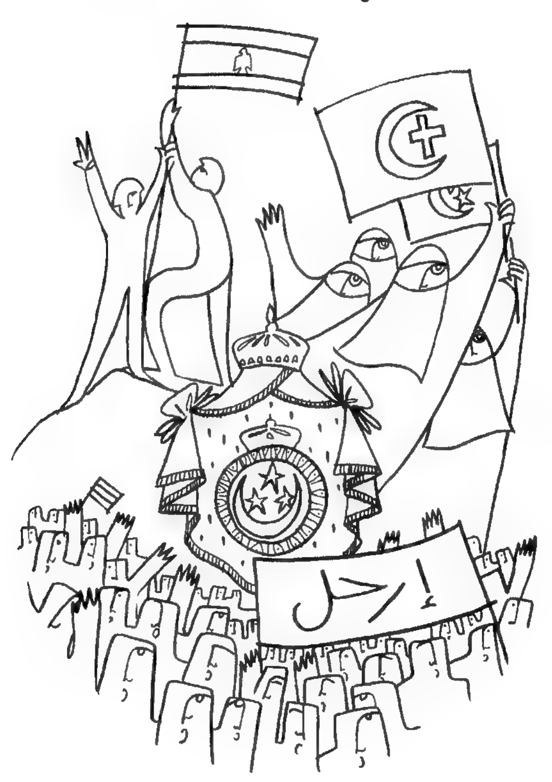
- 4 -

ومع ثورة 25 يناير 2011 تغيرت مسميات كثيرة ، حتى الأيام التي عرفناها : جمعة ، وسبت ، وأحد ، و.... لحق بها أوصاف : جمعة الغضب، جمعة الرحيل ، جمعة الحمد والشكر .. ونفس الشيء مع الميدان : أصبح ميدان الشباب ، ميدان الشعب ، والجيش ، وأيضًا ميدان الشهداء ، وميدان الثورة ..

ويبقى شاهدًا على التاريخ والعصر : ميدان التحرير .

◆

عظيمة يا مصر



هتف العالم كله بهذه العبارة بأعلى صوته .. لم يكن يهتف لمصر القديمة، وحضارتها الزاهية بل يهتف لمصر الحديثة، في ماضيها وحاضرها ومستقبلها .. والغريب ، والمذهل أن الذي يحدث ويجري يكون دائمًا مفاجئًا للعالم، بعد أن يظن أن مصر قد انتهى بها الأمر إلى اليأس وأنها قد أصبحت بلا أمل، ويتساءلون :

- من أين يأتي ؟

هم يرون أن أهلها قد وصل بهم الأمر إلى طريق مسدود ، وأنهم قد رضخوا، وقبلوا بما قُسم لهم .. هذا قدرهم !

وفجأة، من حيث لا يدري أحد يلوح شعاع صغير من النور، سرعان ما يتحول إلى ضياء يملأ جنباتها ، بل ويمتد إلى العالم كله ، الذي لا يملك إلا أن يهتف :

- عظيمة يا مصر .

سأحكي لكم عن مفاجآتٍ أربع قامت بها بأمر الله ، وبفضله ؛ لأنها كنانته في الأرض.

◆

- 1 -

كانت الحياة في صباح ذلك اليوم – 8 مارس – تمضي هادئة ، عادية، والناس في مدينة القاهرة ذاهبون إلى عملهم مثل كل يوم .. ثلاثة من أبناء مصر ساروا إلى حي جاردن سيتي حيث دار المندوب السامي البريطاني ، هكذا كانت تسمى سفارة إنجلترا أيامها .. طلبوا مقابلة المندوب السامي الذي كان في حقيقة الأمر هو الحاكم الفعلي لمصر ، وكان كل ما يرجونه منه أن يسمح لهم بالسفر إلى أوربا لعرض القضية على عدد من المسئولين عن العالم والسلام ، بعد نهاية الحرب العالمية الأولى .. وبدأ الحوار بين الطرفين ، المصري والإنجليزي، وسرعان ما أصبح حارًا حادًا ، ساخنًا .. وقال المندوب البريطاني في حسم : لا سفر ! ، وبدأ نزاع وشجار على أثره أصدر الرجل أمرًا باعتقالهم ، ونفيهم خارج البلاد وما إن تلقت المدينة الخبر حتى هبت عن بكرة أبيها في ثورة عارمة ، امتدت في اليوم التالي إلى شتى أرجاء مصر تهتف بأسماء سعد زغلول ، وعبد العزيز فهمي ، وعلي شعراوي ، وذهل العالم لما عرفه باسم ثورة 19 .. وقال عنها غاندي زعيم الهند :

– لقد علمتنا مصر كيف نثور على الإمبراطورية البريطانية ..

وتردد هتاف : عظيمة يا مصر .

- 2 -

وفي صباح يوم 23 يوليو 52 ، قبل الساعة السابعة ، كانت مصر هادئة ، الفلاحون يمضون للحقول ، والعمال إلى المصانع ، والتلاميذ إلى المدارس ، يوم عادي تمامًا .. وما إن تمت تلاوة آيات القرآن الكريم حتى انساب من الإذاعة : البيان رقم (1) .. ومضت أيام 24 و 25 و 26 يوليو ، وفي السادسة من مسائه ذهل العالم بطرد الملك فاروق الأول ، في مفاجأة مذهلة فتح العالم لها عينيه ، وفمه يهتف : عظيمة يا مصر .. وتابعت الدنيا ما يجري ، خاصة في الوطن العربي وإفريقيا وسرعان ما بدأت أعلام الحرية ترفرف على الدول العربية ، ثم الإفريقية ، ما يزيد على عشرين بلدًا عربيًّا وخمسين إفريقيًّا .. وتؤمم مصر شركة قناة السويس وتنبهر الدنيا، ومصر تتصدى للعدوان الثلاثي من جانب إنجلترا وفرنسا وذيلهما إسرائيل ، وينتصر لنا العالم ويتساءل الجميع :

– كيف يستطيع هذا البلد بين ليلة وضحاها أن يقلب التاريخ ، ويغير من مساره إلى صالح شعوب الدنيا ..

ويتكرر الهتاف :

– عظيمة يا مصر .

- 3 -

وذات يوم أسود يحمل تاريخ 5 يونيو 67 عبرت إسرائيل الحدود مع جيرانها العرب ، بعد أن استولت على أرض فلسطين ، واحتلت هضبة الجولان في سوريا والضفة الغربية لنهر الأردن ، واحتلت سيناء المصرية، ووقفت عند الضفة الشرقية لقناة السويس التي أغلقت في وجه سفن العالم ..

وفي يوم 10 رمضان ، 6 أكتوبر ، كانت الحياة في مصر تمضي كالمعتاد .. يوم عادي من أيام الصيام ، وما من شيء غير عادي ، وفجأة مع الثانية بعد الظهر تنفتح البوابة الشرقية لمصر عند قناة السويس ويندفع أبناء مصر الشجعان الأوفياء يذيقون جيش الاحتلال الإسرائيلي كأسًا مريرة، ويعبرون القناة في قوارب ، وفوق الكباري ، ويعتلون حائط الرمال ويزرعون علمنا الخفاق ، وتصرخ إسرائيل :

- انجدينا يا أمريكا ..

وتحطم خط بارليف ، ونخوض أكبر حرب دبابات في التاريخ ، والعالم يسمع ويرى كيف تجتاحهم قواتنا لتحرر سيناء ونستعيد كل حبة رمل فيها ويذهل العالم ويكرر الهتاف :

- عظيمة يا مصر .

- 4 -

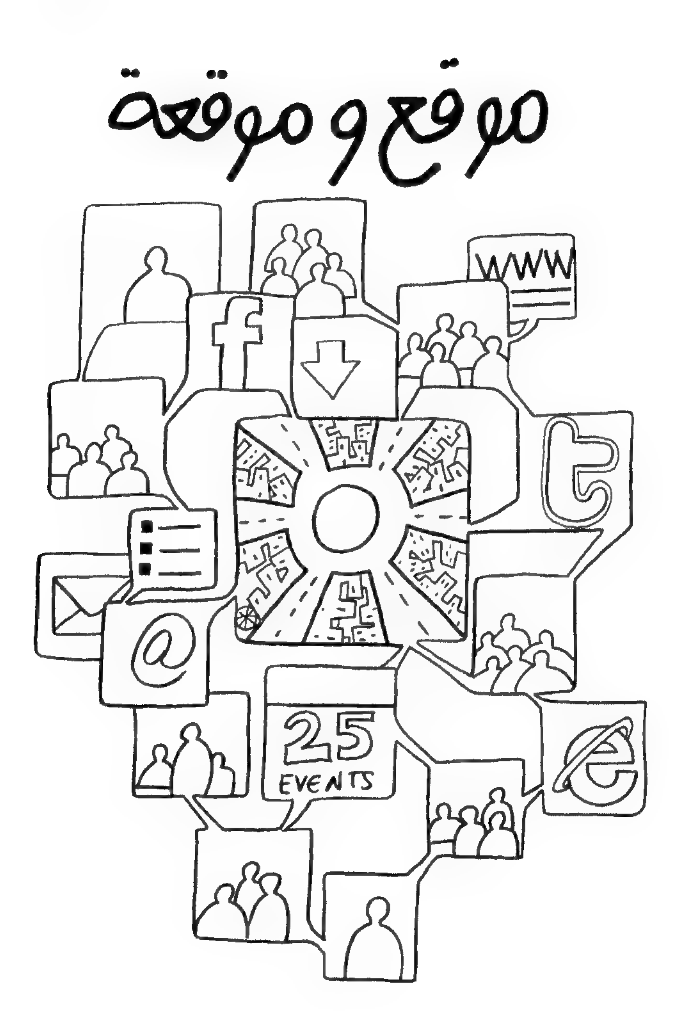
هذا البلد مصر يفاجئ العالم بما لا يتوقعه أو ينتظره .. ما من أحد يستطيع أن يتنبأ بما سوف يفعله .. وقد ضاق بالكثير مما يجري على أرضه، على مدى سنوات طويلة تجاوزت الثلاثين .. وشعر بأن هناك من يُعَدُّ لمزيد من القهر والفساد، والعالم كله يقول :

– مصر فقدت قدرتها على أن تهب في وجه ظالميها ، وبات أهلها قانعين بما يحدث .. من أين يأتيها الأمل ؟

ويكتبون : ماذا حدث للمصريين ؟! .. لا شيء ، عادوا للرضوخ ، هي كما يقولون : لمن غلب وحكم ..

ويشرق صباح 25 يناير 2011 ، ويرتفع صوت الشباب كلهم ، فتيانًا وفتيات ، بل وأطفال يثورون من أجل الحرية ، ويردد الفاسدون إنهم : «شوية عيال» .. وإذا بهؤلاء العيال : رجال وأبطال صامدون كالجبال في قلب ميدان التحرير ، بل في كل ميادين التحرير في كل مدن مصر، وتذهل الدنيا للمفاجأة ، وللصوت المدوي بكلمة واحدة : ارحل. ويضطر الرئيس إلى أن يحني الرأس ويستجيب ويرحل إلى غير رجعة والعالم في ذهول يهتف:

– عظيمة يا مصر .


موقع وموقعة
WWW
25
EVENTS

- 1 -

طرقت الأم باب غرفة ابنها طرقة خفيفة ، ثم فتحته في هدوء ، ونادته بصوت خفيض :

- وائل .

لم يرد ..

رفعت من صوتها مبطنًا بلهجة عتاب :

- وائل .

استمر في دق أزرار لوحة الكمبيوتر .. نفد صبرها وصاحت فيه :

- وائل .

صرخت بأعلى ما تستطيع غاضبة :

- عندما أكلمك عليك أن تلتفت إليَّ وترد عليَّ .

- معذرة يا أمي .

- هذا الجهاز سلبكم عقولكم .. أظن أن أمك أجدر بالاهتمام منه .

واصل وائل وهو يقول متلعثمًا :

- هل من أمر .. عاجل أو .. مهم ..

- نعم .. أنا ....

توقف وائل، واستدار نحو أمه في ضيق وضجر، محاولًا أن يخفف منها، فغادرته مسرعة وصفقت الباب من ورائها، عاد يكمل عمله، ثم لحق بها يحاول أن يسترضيها ..

- تحت أمرك .

راحت تؤنبه في قسوة :

- أدمنتم هذا الشيء السخيف .. كنت صغيرًا وتسامحنا معك في ألعابه، لساعات طوال .. وكبرت وظننتك ستعقل وإذا بك تتحداه في الشطرنج ورحت تضيع وقتك معه .. وها أنت ليل نهار تتطلع لشاشته ويضعف بصرك وصحتك، بل وأخلاقك .

حاول تهدئتها، فلم تلن أو تتراجع، وقالت في حسم :

- ارجع إليه وإلى شبكته العنكبوتية، كذبابة سيلتهمها، أو حشرة يجتذبها الضوء لتحترق بناره ..

نكس رأسه ولم يجد أمامه إلا العودة لجهازه .



- 2 -

سألته أمه :

- كنت نائمًا تتقلب في فراشك ، وتردد اسم خالد .. من يكون ؟

هتف وائل : هل حدث هذا حقًا ؟

- نعم ؛ لذلك أسألك .. أهو ابن الوليد ؟

ضحك وائل : أنت تذهبين إلى بعيد .

- كلنا يحلم بموقعة يرموك جديدة ..

- هو موقع ، وليس بموقعة .

- ماذا تعني ؟

- هو موقع أنشأته على (الفيس بوك) ..

- نعم ؟ هل أنت مع الكمبيوتر حتى في الأحلام ؟

- هذا قدري يا أمي ..

- لقد استعبدك هذا الجهاز في صحوك ونومك .

- أنا ممن لا يستطيعون أن يرفعوا أصبعهم من على الجرح .

- بل ولا ترفعه عن أزرار الكمبيوتر ..

- خالد سعيد لا يفارقني ليل نهار .

- من يكون ؟

هتف وائل : ماذا ؟ ألا تعرفينه ؟

- لا أذكر أين ومتى سمعت به .

- الآلاف ، يزورون يوميًا الموقع الذي يحمل اسمه والذي أنشأته ..

- أنت وهم تعيشون في «وَهْم» ..

هتف وائل : وهم ؟

- نعم ، هو عالم افتراضي .. لا وجود له في الواقع والحياة ..

- بل هو لحم ودم .. خالد سعيد ، خالد ، ممن هم أحياء عند ربهم يرزقون .. إنه مواطن شريف ، جالس في مقهى .. هو شاب في مقتبل العمر .. أمل أمه وأبيه .. وربما أمّته ، ووطنه .. وإذا باثنين يفترض أنهما حُمَاتُهُ يدخلان إليه ، ويضربان رأسه بالمائدة ، ويدقان عنقه ، ويذيقانه الموت ..

- آه ، تذكرته .. فتى الإسكندرية ..

- بل فتى مصر كلها .. إنه مصيرنا جميعًا إذا لم نفق لأنفسنا وبلدنا ..

- وهذه الآلاف هل تزور قبره ؟

- لا يجديه ذلك شيئًا .. هم يزورون موقعه ليبقوا على قيد الحياة ..

- هذا شيء جديد ، ليس عليّ فقط ، بل أظنه على «الكمبيوتر» نفسه.

- 3 -

تدير الأم ما سمعته من ابنها ، وتفكر فيه طويلًا وتسأل نفسها :

- أيكون في هذا خُطورة على ولدها إذا « هم » عرفوا به ؟

وتصارحه ، يبتسم ، يطمئنها ..

- أخاف عليك لو أن أصحاب القرية الذكية علموا بأمرك .

- هم أغبى مما تظنين .. هم «أميون» ..

- أميون ؟

- نعم .. هم يعيشون في وهم من خلال الكمبيوتر ، أما نحن وزوارنا فنعيش واقعًا جديدًا نصنعه ، وحياة حقيقية ..

- أتظن هذا ؟

- ليس هذا مجرد ظن .. إنه يقين .. نحن نحفر بأظافرنا لنخرج الفجر..

- هل تحول هذا الجهاز اللعبة شيئًا جادًّا ؟

- جدًّا .. ولا أظن أن صانعيه ومبرمجيه قد خطر ببالهم .. نحن بما نفعله سوف نذهل أوباما ، وبل جيتس إن كان اسمهما معروفيْن لك .

- أسمعها في نشرات الأخبار .

- اسم خالد سعيد سيتألق على مستوى الإنسان بها يتجاوزهما ..

- أترى هذا ؟

- ليس مجرد رأي ، سيتمنيان لو أن شبابهم يقدرون على أن يفعلوا ما نفعله .

- أيكون لعملكم هذا ثمرة ؟

- وأي ثمرة ..؟

* * *

ومن موقع خالد سعيد يناشد وائل أصدقاءه وزملاءه وزوار الموقع أن يلتقوا في ميدان التحرير يوم الخامس والعشرين من يناير 2011 لم يجلسوا إلى مقهى في الميدان لشرب الشاي أو انتظارًا لمن يوردهم حتفهم .. كانوا أقوى بأسًا من النظام ، والشرطة ، و.. ، و.. افترشوا الميدان هاتفين : ارحل .. كانوا يخاطبون بهذه الكلمة الآمرة : رئيس الجمهورية والسيدة قرينته ، وابنيها : جمال وعلاء . ورحلوا عن السلطة ، وعن العاصمة .. إلى شرم الشيخ ، ونفض شعبنا وشبابه عن كاهله هؤلاء المتسلطين ، وارتفعت راية ثورة 25 يناير خفاقة عالية ولن تنتكس أبدًا .

حديث التوريث



كان حديث الجميع .. في البيت ، والشارع ، والمدرسة ، والنادي ، وأيضًا في الصحف والمجلات ، والإذاعة والتليفزيون وكنت أداعب صاحباتي وأصحابي ، وزميلاتي وزملائي:

- أحيانًا أفتح الحنفية أو الثلاجة أو الدولاب أو الدرج وإذا بالحديث عن التوريث ينبعث منها ..

وفتحت معلمة اللغة العربية المعجم الوجيز على كلمة : ورث ، وراحت تقرأ لنا :

ورِث فلانٌ المال : صار إليه ماله بعد موته .

وفوجئت بنا نضحك .. رفعت رأسها تتطلع إلينا عما يضحكنا . قالت زميلتنا خفيفة الظل بثينة :

- ويحدث في حياته أيضًا !

ضحكنا من جديد ، وأضافت :

- مادمنا مع حرف الواو ، فلنبحث في مادة .. وخفض صوتها وهي تقول : (وَسِخ) ..

ضحك بعضنا وتأففت أخريات ، باعتبارها كلمة نابية ما كنا نرغب في النطق بها أو سماعها ، لكنها أفلتت من زميلتنا وفق عبارتها «القافية تعذر»!

- 1 -

كنا نجلس إلى المائدة نتناول طعام العشاء ، و«جاء» – أو «جاءت» السيرة على لسان أبي ، وقال في لهجة يقين :

– سيصبح هذا الشاب رئيسًا ..

وفوجئت بشقيقي والرَّذاذ يتطاير من فمه :

– قسمًا برب العزة لن يحدث .

التفتنا إليه في دهشة ، فقد تعودناه هادئًا رزينًا مهذبًا ، خاصة عندما يتعامل مع أبي ، وأمي ، وما عهدناه ثائرًا غاضبًا صارخًا ، وأضاف بلهجة أكثر حدة :

– على جثتي ..

هتفت أمي : ماذا ؟! بعد الشر .. يا عمرو.

أضاف أخي : أنا أحق به منه !

قلت في دهشة : ماذا ؟

واصل : عرابي أقسم في ميدان عابدين : والله لن نورث بعد اليوم .. عام 1881 !

طرق أبي طبقه طرقة خفيفة وقال في هدوء :

- ومع ذلك توارثنا عباس حلمي ، وفؤاد الأول ، وفاروق الأول ، والرضيع أحمد فؤاد الثاني ..

رد أخي : ألقينا به في عرض البحر المتوسط هو وأباه ونفضنا أيدينا من أسرة محمد علي.

◆

- 2 -

أمي توصينا :

- هل لكم أن تواصلوا تناول طعامكم الذي أجهدت نفسي في طهيه، بديلًا عن حديث التوريث .. إنه يسدّ النفس ..

ضحكت ضحكة خفيفة .. ونظر أبي إلى شقيقي وقال :

- نحن بلد طيب ، نتقبل ما يقررونه علينا يا عمرو .

رد أخي في أدب :

- بلدنا صبور ، يخفي تحت الرماد نارًا .

- عمرو بن العاص قالها عنا : وهي لمن حكم !

- قوله مردود عليه ؛ أليس هو القائل أيضًا عند التحكيم بين علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان : اخلع عليا وأثبت معاوية ؟

أعجبني ما قاله شقيقي عمرو ، وكنت أشعر دائمًا أن اسمه لا يطيب ولا يستريح له ..

قالت أمي : أبوك اختار لك اسمه على أمل أن تكون «داهية» مثله ..

ضحك أخي وقال : لقد أصبحت كذلك في لهجتنا العامية ..

سألت : هل من فارق ؟

- كبير .

ضحكت أمي وهي تقول : ستذهب في داهية إذا أعلنت رأيك .

- 3 -

شخصيًّا ، ما كان يزعجني شيء مثل اسمه و«سيرته» . فهو ما كان يستحقه ، وفي قرارة نفسي كنت أرى أباه قد اختاره له تقربًا ، بل ونفاقًا، للزعيم البطل جمال عبد الناصر ، حبيب الملايين ، أما هو كما قال عنه كاتب فكاهي مرح ، فإنه حبيب المليارات من الدولارات ، وكنت منحازة لأخي في رأيه .. وقلتها عن إيمان لزميلاتي :

– لا أريد أن أعيش إلى يوم يقسم فيه – كرئيس للجمهورية – بأنه سيحافظ على النظام الجمهوري ..

وتندهش زميلاتي ، وتتناثر تعليقاتهن :

– أنت إذن لا تريدين أن تعيشي طويلًا .

– هذا يوم آتٍ لا ريب فيه .

– لماذا هذا ؟

وأجبت : لأن أباه حنث في قسمه هذا .. ولم يحافظ على النظام الجمهوري الذي ناضلنا للوصول إليه .. ويريدون بجرة قلم أن يحرمونا منه بالتوريث ، وقد أعلناه من أجل تداول السلطة ، وتحكم أصوات صناديق الانتخابات النزيهة الشفافة .. لا الوراثة !

- 4 -

وكنت أنقل لزميلاتي فكاهة تقول إن التليفزيون سيذيع عام 2022 قرارًا من الرئيس تامر جمال محمد حسني مبارك بتعيين وائل شريف صفوت الشريف وزيرًا للإعلام !!

وكان شقيقي وزملاؤه يقولون :

– لن يحدث .. شعبنا وشبابنا بالمرصاد .. وكانوا يقولون هذا بحسم وإصرار ، كأنهم على علم وثقة كاملة بالمستقبل .. ولم يطل الحديث عن مثل هذا الكابوس الذي يرونه ليلًا ونهارًا .. لقد استشرفوا المستقبل ..

لا وزارة للإعلام ..

ولا للولدين ، والحفيدين ..

ولا للتوريث وحكايته المملة السخيفة ..

يجدر بنا أن نتدبر قوله – سبحانه وتعالى –

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴾ «مريم : 40» .

﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴾ «الأنبياء : 105».

﴿ وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ ﴾ «الزمر : 74».

رسالة من تونس



إهداء

إلى صديقي وتلميذي

صاحب هذا الاسم الكريم

إلى سارة بنت خميس رسالة من تونس

- 1 -

العزيز هيثم عبد السميع

ما عادت الـ SMS تكفي ، قل لي – بالله عليك – كيف يمكنك أن تبعث لي من خلالها بحفنة من هذا التراب الجليل الذي يكنسه شبابكم في ميدان التحرير ، من أجل أن : ألثمه ، أقبله ، أستنشقه .. ليتكم تحافظون عليه ، وتحفظونه ، وكصيدلانية أتمنى أن أراه على الرفوف أمامي ، معبأً أقراصًا وحبات وكبسولات وأنابيب شفافة ، وتقف من أمامي طوابير منتظمة، بطول تلك التي اصطفت تدلي في صمت مدوٍّ بأصواتها في الاستفتاء عندكم ، وقد تخيلتهم طلائع جيش يزحف ليسحق الطغاة والمستبدين أعداء الحرية والحياة .. رجاء : لا تفرطوا في ذرة من هذا التراب الذي وقفتم من فوقه هذه الساعات ، وإذا بقاماتكم وصلت إلى ذرى عالية شامخة ، تشخص إليها أبصار العالم في احترام ، وحب وتقدير.. هذا التراب يجب أن تحقن به البلدان الضعيفة المتخاذلة ليصبح أبناؤها عمالقة ..

◆

- 2 -

إن ما أراه على الشاشتين الصغيرتين – كمبيوتر وتليفزيون – عما في بلدكم/ بلدنا يجعلني طيلة الوقت مقشعرة، مشدوهة، خاصة وأنا أشهده من خلال دموع لست قادرة على أن أوقف إفرازها ولست بمستطيعة على أن أسقطها على خدي لأشربها .. هي ليست دموع بكاء أو فرح، لكنها من لون ونوع لا أعرف إذا ما كانت الإنسانية تعرف لها وصفًا .. ما أراه على الشاشتين حولني من متعاملة مع العلم والتكنولوجيا في قمتهما : وقاية من المرض وسبيلًا لعلاجه إلى «شاعرة»، ولا أقصد بها تلك التي تصوغ القصائد والأغاني – يا الله على ما قاله الميدان منها، وما أروعها. لكنني شاعرة بكياني ووجودي، بهذا الذي يجري ويحدث، وهو في ذاته قصيدة لم تكتب وأنشودة لم تغن لأنه شيء أثيري، ينتقل إلى أرجاء عالمنا؛ ليتلقاه البشر أينما يكونون؛ ليدركوا أنهم إزاء لحظات إنسانية لم توجد من قبل، لكن ها هي قائمة أمام أسماعهم وأبصارهم، وإنا على يقين أنها سوف تبقى وتظل على مدى التاريخ نبراسًا يضيء للإنسانية طريقها إلى حياة كريمة، عظيمة، شفافة، بل بالغة الشفافية والروعة ..

◆

- 3 -

ربما تكون – يا هيثم – مندهشًا لهذا الذي أكتبه .. ربما أكون أنا شخصيًّا أكثر دهشة له .. فما كنت ، وما أنا ، ولا أظنني سأصبح كاتبة، ولن تتكرر هذه التجربة ، ولست أدري كيف تتدفق الأفكار إلى رأسي تدفقكم إلى الميدان .. الميدان الرمز .. الميدان الحج .. الميدان الكعبة .. وأنا أدق الكلمات على الأزرار غير عارفة من أين تأتيني .. إنها تجد طريقها إليَّ، كما وجدتموه إلى الميدان من أطراف مدينتكم الكبيرة الشاسعة ، سيرًا على الأقدام مهما بعدت الشقة ومهما وقفوا لكم كدروع بشرية تحول بينكم وبينه .. بات الوصول إليه هدفًا ، وبعدها لا تلقون بأجسادكم المنهكة ولا تلتقطون أنفاسكم ، ولكنكم تفاجئون عالمكم بالهتاف للحرية، بالصراخ للعدل : إنها الصحوة والصيحة الكبرى : يا بشر أفيقوا .. مصر توقظكم من نوم طال ..

◆

- 4 -

اضطر شقيقي للسفر إلى أوربا ، وفي المطار وقف الناس في صفوف طويلة ، وفي ملل ، يضربون بأقدامهم الأرض ، وقد أمسكوا بجوازات سفرهم الصغيرة يحركونها قرب وجوههم من أجل نسمة هواء .. وتتحرك الطوابير في بطء ، وصمت .. وفجأة وقف ضابط ممن يفحصون أوراق القادمين إلى بلده وقد رفع جواز سفر في يده ، وقال في صوت عال :

– هذا جواز سفر ضيف مصري ..

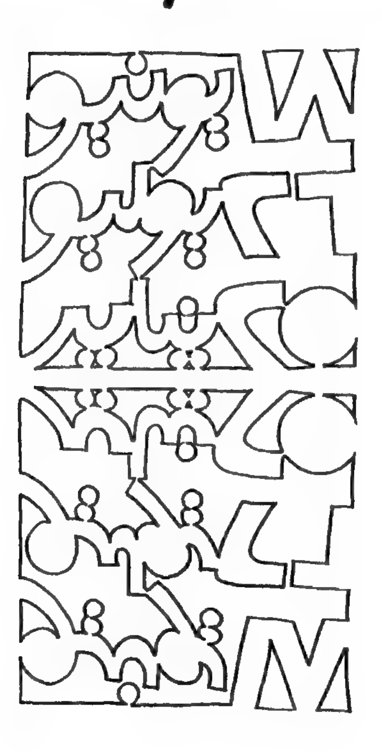
ويقول شقيقي لي هاتفيًا : وإذا بقاعة المطار تدوي بالتصفيق المدوي، وأصوات ترتفع مناشدة هذا المصري أن يعتلي الطاولة ليروه .. وتهدج صوت أخي وهو يضيف : لقد حدث لي هذا الشيء نفسه لقد استطعنا – يا هيثم – أن نجعل العالم يعود لينظر إلينا نظرة أخرى .. كم أزعجنا وهو يطل علينا حائرًا يسمينا مرة بالدُّول المتخلفة .. ويحاول أن يجمِّلها فيقول: النامية ، ولو أنه يعرف اللغة العربية لما توانى قط في قوله : النائمة، وربما أضاف إليها عبارة : إلى الأبد .. وها نحن لم نستيقظ فحسب ، بل إننا نوقظ كل المظلومين .. كل المسجونين .. كل المضطهدين ؛ لكي يطالبوا بحقهم في الحياة ، والحرية ، والعدل .. وصدقني ما اخترعت وما ألفت ما حكيته عن أخي ؛ لأنني وبصراحة لا أستطيع ، ولا خيالي ، أن يبتكر هذا الذي حدث .. هو يفوق حتى أمانيّ وأمنياتي .

- 5 -

تعودنا يا هيثم في «الفيس بوك» أن نبعث بخبر في سطر أو تحية في مناسبة .. هكذا تصوره صاحبه سيبقى مجالًا للمجاملات ، لا أكثر ولا أقل .. ما كان يتخيل أنه على أيدينا سيتحول إلى توسونامي بشري ، وإلى زلزال إنساني يطيح بمن تصوروا أنفسهم سادة يحملون دكتوراه في حكم وقهر شعوبهم التي تتوق للحرية .. وإذا بإنساننا البسيط يقدم بعبقرية إبداعًا تشهد له الإنسانية .. لقد رأى العالم تشرشل في الحرب العالمية الثانية يرفع أصبعيه بحرف 7 ، أي «فكتوري» ، النصر .. وقد ضحكت من أعماق قلبك وأنت تعلق على أصبعينا ونحن نحركهما رامزين بهما إلى مقص مصففة الشعر التي حملت أطنان الذهب ، كما فعلت اليهوديات حين استعرن الذهب من المصريات ليهربن به ، ويتحول في سيناء إلى «عجل ذهبي» وموسى في طريقه يعتلي الجبل ويحدثه ربه ، الذي لم يسمع صوته إلا في سينائكم المقدسة «التاريخ كما يقولون يعيد نفسه» .

◆

عيدان في يوم واحد



- 1 -

جدّي كان ضابط شرطة ..

وكان شابًّا صغيرًا يعمل في الإسماعيلية خلال فترة انتفاضة مصر ضد القوات البريطانية عقب إلغائنا لمعاهدة 36 ، واشتد الموقف في منطقة القناة حيث تقوم معسكراتهم .. واستشهد البطل الصغير نبيل منصور ، في الحادية عشرة من عمره ، وهو يلقي على خيامهم بكرات مبللة بالبنزين ، مشتعلة بالنار ؛ لتحرقها .. واستشهدت أم صابر التي كانت تتجاوز الستين من العمر .. وقام جيش الإمبراطورية البريطانية بمحاصرة مديرية الأمن ، وجدي وسط جنوده ، وهم يحملون بنادق قديمة يواجهون بها الدبابات والعربات المصفحة .. وبدأت المعركة ..

كان ذلك يوم 25 يناير عام 1952 ، وتعودنا كأسرة كبر عددها أن نحتفل بهذا اليوم ليروي فيه جدّي أحداثه للأجيال الجديدة عامًا بعد عام ..

وأصبح ذلك تقليدًا عائليًّا : أن نقيم حفلًا في كل مناسبة وطنية ، وكان جدي وجدتي حريصين على الاحتفال بيوم آخر أصبح عزيزًا عليهما ..

إنه يوم 18 يونيو ..

وتحكي جدتي عما حدث لها فيه عام 1953 .. وكان قد مضى على ثورة يوليو أقل من سنة .. تقول ..

- منذ كنت تلميذة أدرس تاريخ مصر الحديث لم أشعر بالحب أو الاحترام لمحمد علي باشا وأسرته .. رفضت الاقتناع بأنه باني مصر ، وظل في نظري جنديًّا من ألبانيا جاء مع العثمانيين ، يتاجر في الدخان ، ويتودد للناس إلى أن اختاروه واليًا جعل من البلد مزرعة تملّكها ، وجند أبناءها ليحارب بهم في الجزيرة العربية ، والسودان ، والشام . بل وفي اليونان، وانقلب على الأتراك ، ثم ورَّث الأبناء والأحفاد عباس الأول الغبي ، وسعيد النهم للمكرونة ، وأعطى ديليسبس حفر قناة السويس وراح ضحيتها 120 ألفًا .. ومن بعده إسماعيل الذي استدان وبعثر أموالنا .. وجاء توفيق ليدخل الإنجليز مصر . وكم فرحت لطرد فاروق وابنه الرضيع أحمد فؤاد .. أسرة فاسدة .

وفي يوم 18 يونيو 1953 كنت سهرانة أستمع لحفل غنائي وأستعرض هذا التاريخ وفوجئت بهم يقدمون يوسف وهبي ليعلن خبرًا .. وإذا به يعلن أن مجلس قيادة الثورة قد ألغى الملكية وأعلن الجمهورية ، وجريت للشرفة وأطلقت زغرودة أيقظت النائمين وعندما علمت جاراتي بالخبر انتشرت الزغاريد في كل الحي .

◆

- 2 -

وأصبحنا نحتفل بعيد الشرطة في 25 يناير من كل عام ، وبعيد الجمهورية في 18 يونيو عام 1954 الذي وقعنا فيه مع إنجلترا اتفاقية الجلاء بعد احتلالهم لبلادنا قرابة 75 عامًا .. واحتفلنا به عام 1955 .. وكانت جدتي خلال الفترة من أكتوبر 54 التي وقعت فيها اتفاقية الجلاء تعد الشهور ، والأسابيع ، بل والأيام ، وربما الساعات ، تحسب ما مرّ منها وتنتظر الانتهاء من مدة العشرين شهرًا التي تمضي ليحل يوم الجلاء، بل ذهبت أكثر من مرة إلى منطقة القناة لتشهد رحيلهم ، وفي مرة منها قالت لي :

– ليتنا ننفض التراب المصري من على دباباتهم وعرباتهم المصفحة .. ليبقى لنا ..

وأصرت أمي على أن نسافر إلى بورسعيد في منتصف يونيو 56 بحجة أن الجو في القاهرة حرّ ، ونبهناها إلى أن عيد الجمهورية سيحل قريبًا ، فقالت :

– لا بأس من الاحتفال به هنا .. أو نعود يومها .

لم نكن نعرف سر إصرارها على السفر .. ولكنها كانت تعرف أن حدثًا سوف يقع في هذا اليوم ..

كانت أمي تعرف وفق حساباتها الدقيقة أن أرض مصر سوف تكون طاهرة من أقدام الإنجليز في هذا اليوم ، وأن آخر جنودهم سيكون قد غادرها . وكانت مفاجأة كبيرة وسعيدة أن جمال عبد الناصر سيكون في هذا اليوم في بورسعيد ليحتفل بالحدث .. وقدموا له علم مصر ، وقبله ، وبلله بدموع الفرحة ، ورفعه خفاقًا عاليًا وهو يقول :

- لن يرتفع على أرض مصر إلا علم مصر .

وعدنا إلى القاهرة لكي نشهد مع العائلة - التي أصبحت قبيلة كبيرة العدد - الاحتفال بالثامن عشر من يونيو ..

18 يونيو عيد الجمهورية .

18 يونيو عيد الجلاء .

واستمعت الأجيال لحكاية اليوم الذي هو عيدان جليلان جميلان .. وصرنا نحتفل به بإجازة من المدرسة لسنوات ..

وعندما بدأنا نذهب إلى مدارسنا في هذا اليوم بعد ذلك ، كانت لا تشعر بالارتياح وتقول :

- ليكن .. لا حاجة بكم للإجازة .. سيكون الاحتفال بالعيدين في المساء كبيرًا وعظيمًا.

◆

- 3 -

ومرت السنون ونحن نحتفل بجدي وعيد الشرطة في تاريخه ، 25 يناير، وتصر الأجيال الجديدة على أن يرتدي بدلة الشرطة التي كان يرتديها في ذلك التاريخ في الإسماعيلية، وقاتل بها إلى أن فرغت الذخيرة من أيدي الضباط والجنود ، ولم يستسلموا ، وفي اليوم التالي خرجت صحف العالم كله تشيد بهم وببطولتهم ، وتسخر من جيش الإمبراطورية التي غربت عنها الشمس .. وخرجت جماهير القاهرة ، والملك يحتفل مع حاشيته بسبوع الرضيع ، وأشعلت النار في المدينة ..

ولم تمر غير أشهر قليلة وتقوم القوات المسلحة بثورتها المظفرة ، وتطرد الملك وولده إلى غير رجعة .. ولتضيف يومي 23 و 26 يوليو إلى أعيادنا.. وأصبح يوم 26 يوليو بالذات عيدين في يوم واحد : خلع الملك وطرده ، وعيد تأميم شركة قناة السويس ..

وكنا نبتهج في 18 يونيو باحتفالنا بعيدين في يوم واحد ، وفي 26 يوليو أيضًا ..

ونقول للأجيال الجديدة :

- هل من بلد في الدنيا يحظى بمثل هذا ؟

ويهل علينا يناير 2011 ..

ونكتئب لما حدث في مستهلها عندما وقع ذلك الحدث المروِّع لكنيسة القديسين بالإسكندرية ، وبدأت الأجيال الجديدة في العائلة تسأل في قلق:

- نظن أنه من غير اللائق أن نحتفل هذا العام مع الجد العزيز بعيد الشرطة .. ارتفعت الهمسات ، ووصلت إلى آذان الكبار .. كانوا يتبادلون أحاديث مقتضبة عن أشياء كثيرة تزعجهم إزعاجًا شديدًا ، من بينها ما حدث من انتخابات مزورة أثمرت مجلسًا مزيفًا ، سبقه آخر للشورى، بجانب كلام عن قرب انتخابات لرئاسة الجمهورية في نفس العام ، بجانب غضب عارم على وزراء ، وسياسيين ورجال أعمال ، وقد تحولوا إلى عصابات تسرق وتنهب كل شيء : من الأرض إلى العرض ..

وعندما يسأل الأطفال عن الاحتفال بعيد الشرطة يواجهون بالصمت ؛ ذلك أنهم ما كانوا يعلمون أن 25 يناير سيكون يومًا لعيدين، وليس لعيد واحد .. لقد أضحى عيدين ، وسيخلد في التاريخ عيدًا لأروع ثورة عرفها عالمنا .. ثورة 25 يناير 2011 .

◆

هيا نحتفل بمصر



- 1 -

كانت المذيعة تستعد لتقديم برنامج إذاعي احتفالاً بعيد الطفولة ، وقد التفت مع أطفالها حول الميكروفون ، باسمة ، متألقة ، قائلة في بهجة:

* كل عام وأنتم بخير .

كل سنة وأنتم طيبون .

بدأ الأطفال يتحفزون ..

- ما المناسبة ؟

* عيد الطفولة ..

- آه .. سنغني له ؟ أو لكم ؟ أو تغنون علينا ؟ وتوزعون علينا الحلوى والزهور ؟

- أهو عيد ؟

- نرجو أن «يعدّي» بالسلامة .

- ذات عيد للطفولة ابتلعت البلاعات ثلاثة أطفال ..

- وفي عيد آخر اصطدم قطار بأتوبيس رحلة مدرسية ..

- ومرة وقع زلزال ..

- العيد الحقيقي أن توفروا لنا السلامة والأمان .

- وأن تحمونا مما يجري تحت سمعكم وبصركم .

- وأن تسمعونا .

- وتولوا رأينا الاحترام الواجب .

- أنتم غافلون عنا .

- وتهملوننا .

- هل بيوتنا حقًّا «بيوت» ؟

- وهل مدارسنا بصدق «مدارس» ؟

* أنتم كثيرو الشكوى .. ومن الصعب أن نرضيكم .. هذا عيد عالمي .. أقرته الأمم المتحدة .. وهيئة اليونسكو .. واليونيسيف .. أي الثقافة، والطفولة .. وتركت لكل بلد أن تختار يومه وتاريخه .. واخترنا يوم ميلاد الزعيم جمال عبد الناصر ، واختارت الهند يوم ميلاد زعيمها نهرو .. واختارت يوغسلافيا يوم ميلاد تيتو .. واختارت إندونيسيا يوم ميلاد سوكارنو ..

زعماء دول عدم الانحياز والحياد الإيجابي .

- وعندما رحلوا تغير الموعد ..

- وأصبح تاريخ ميلاد الرئيس الجديد ..

* اخترنا له يوم 20 نوفمبر الذي يوافق ذكرى صدور الإعلان العالمي لحقوق الطفل .. عام 1959 ؛ منذ ما يزيد على خمسين عامًا .

- لا حاجة لنا به ..

- ونرى أنه عيد مصطنع ..

- نريد عيدًا حقيقيًا ..

- خاصة بعد ثورة 25 يناير 2011 ..

- لا رغبة لنا في الاحتفال بعيد الطفولة .

ارتفع صوت هادئ عميق :

- هيا نحتفل بمصر .

وصفق الجميع ..

* كيف نحتفل بها احتفالًا لائقًا ؟ ويتناسب مع هذه الثورة البيضاء الرائعة ؟

- عندنا الكثير الذي نقدمه لها .

- يجب أن نكرمها في هذه المناسبة .

- هل سنتغنى بمصر القديمة وحضارتها ؟

- وأيضًا بمصر العربية الإسلامية .. والأزهر والمساجد .

- ولن ننسى مصر الكنائس والأديرة ..

- ومصر الحديثة والمعاصرة ..

* هذه كلها أفكار جميلة ، يتبقى أن تعبروا عنها بأسلوب راق ، رائع.

- 2 -

سألت المذيعة أطفالها :

- بماذا نبدأ احتفالنا بمصر ؟

سارعت سلوى تجيب :

- ليس أجمل في البداية من أن نسمع أم كلثوم وهي تغني «مصر تتحدث عن نفسها».

ارتفعت الأصوات بحماسة تؤيد الاقتراح وتهلل له .. وأدير الشريط، والجميع يتابعه ، بصمت ، كأنهم يشربون كلماته وبين حين وآخر يعلو هتاف : الله .. الله .. وعندما انتهت الأغنية :

- ما رأيكم في أغنية : مصر التي في خاطري وفي فمي أفديها بكل روحي ودمي ؟

قاطعه سامي : لا يمكن أن يتواصل الغناء ..

قالت المذيعة : لتكن الأغنيات في خلفية حديثنا عن مصر .. وقف سامح وفي لهجة خطابية قال : بلادي بلادي ، لك حبي وفؤادي .. لو لم أكن مصريًا لوددت أن أكون مصريًا: خالد الذكر مصطفى كامل .

نهضت سماح تقول : من أجل مصر وقعت معاهدة 36 ومن أجل مصر أطالبكم اليوم بإلغائها .. مصطفى النحاس .

وصاح تامر : قرار من رئيس الجمهورية تؤمم الشركة المصرية العالمية لقناة السويس .. شركة مساهمة مصرية .. جمال عبد الناصر ..

وفي صوت كالرعد صرخت هدى : ارحل .. شباب ميدان التحرير ودوّى المكان بالتصفيق ، ليقطعه سامي ..

- تجمد أموال الرئيس السابق وأسرته ويمنعوا من مغادرة البلاد .. النائب العام المصري..

وحدث صخب شديد ، وكأنما انتقل ميدان التحرير إلى استديو الإذاعة ، وبذلت المذيعة جهدًا كبيرًا لتسكت الحاضرين ، وبعد أن عاد الهدوء قالت :

* قلنا إننا نريد احتفالًا يليق بمصر .. مصر أحمس وتحتمس محمد كريّم ، وعمر مكرم.. سعد زغلول وعبد الناصر .. طه حسين والعقاد .. هدى شعراوي وأم صابر .. عمرو موسى أمين عام الجامعة العربية وبطرس غالي أمين عام الأمم المتحدة .

- الله ، كأنهم معنا هنا ..

- احتفلوا فعلًا بمصر ..

* ولا يفوتنا شهداء ثورة 25 يناير 2011 .. وإذا بكل الحاضرين يقفون لأداء التحية في وقار مهيب ، وترقرقت الدموع في عيون الفتيات والفتيان وساد الصمت بعض الوقت .. وقالت المذيعة :

* أحسنتم .. وقائع الاحتفال بمصر تمضي وكأنها أعدت وجُهّز لها من قبل وليت كل أطفال مصر معنا في هذه اللحظة ، كما تجمع ملايين الشباب لا في القاهرة وحدها بل في كل أقاليم مصر ، وقد سمعوا منا في طفولتهم براجحنا : الطفل الوطن ، أشبال 6 أكتوبر .. مسلسل صلاح الدين .. 56 ، والبلد الذي هزم إمبراطوريتين وذيلهما .. قلنا هنبني السد وبنيناه بأيدينا وعمالنا .. 5 يونيو و6 أكتوبر ..

نص قرن واحنا بنقول : مصر .. وبنقول احنا مؤمنين بأطفالنا وشبابنا .. هم طيبون صبورون ، وعندما يفيض بهم : ينفجرون .. لا من أجل أنفسهم ، بل من أجل مصر التي يحبونها ويقدسونها .. لم يصدقوا قط عبارة (مافيش أمل .. مافيش فايدة) ..

وفي 18 يومًا استطاعوا أن يرفعوا عن كاهل مصر حكمًا استمر ثلاثين عامًا ، وكان النظام يظن نفسه قادرًا على أن يمتد ويستمر جاثمًا على صدر مصر بالتوريث .. ولكن شبابنا وقف في صمود إلى أن أطاح بهم وأراحنا منهم ..

لذلك فإننا نقيم في كل أرجاء مصرنا العزيزة احتفالات بها ، وبتاريخها وإنجازاتها وثوراتها : واحدة بعد الأخرى ..

إن أروع احتفال بمصرنا أن نحبها وأن نعمل من أجلها ، ونكف عن الرغي والكلام .

◆

جدى يركب الموجة



سألت مريم الصغيرة جدَّها :

- هل شاركت يا جدي في ثورة الشباب في 25 يناير 2011 ؟

ضحك الجد :

- هل يشارك عجوز مثلي في ثورة للشباب ؟

- أعرف أنه من المستحيل ألا تشارك .

- هذا صحيح ، ذلك أنني صنعتها ..

هتفت : نعم ؟ حتى أنت تريد أن تركب الموجة ؟

ضحك من جديد :

- الثورة تضع على ألسنتكم كلمات أكبر منكم .. هل شاركتِ أنتِ؟

- طبعًا .

- كيف ؟!

- اشتريت علمًا رفعته على شرفة بيتنا من مصروفي ، وذهبت إلى ميدان التحرير مع أبي وهتفت لمصر .

- الآن فقط عرفت سر نجاح الثورة .

وضحكا من جديد .

- 1 -

لم أكن مدعيًا ولا كاذبًا ولا راكبًا لموجة حين قلت لحفيدتي إنني ممن صنعوا ثورة 25 يناير 2011 .. فقد سمعوني عبر الإذاعة ، وقرأوا كتبي ، وقصصي في المجلات مثل 6 قصص عن 6 أكتوبر ، وأم حنان ، وأشبال 6 أكتوبر .. وهناك جيل شهد (نهضة المشلول) مسرحيتي التي ربطت فيها بين ثورة عرابي وثورة 52 .. وقبلها شاركت في انتفاضة عام 1945 و1946 عندما كنت طالبًا جامعيًا !

وكتب أحدهم مقالًا ، وضع صورته عليه ، يقول : شهدت في حياتي ثورتين : 23 يوليو 52 ، و25 يناير 2011 .. ونسي أن يضيف كلمة : متفرجًا ! ، وكثيرون لم يشاركوا بشيء – كما قالت حفيدتي – ويركبون الموجة ، كزعماء ، ونراها بطولة زائفة .. وهناك أبطال حقيقيون قاموا بالثورة وناضلوا من أجلها ، ولا يعنيهم أن يعرف الناس أدوارهم ..

أوضحت هذا لحفيدتي ، وإذا بها تطرح سؤالًا مهمًا :

– هل « تستمر » الثورة ؟

– ماذا تعنين بكلمة « تستمر » ؟

– هي واضحة : الثورة تنفض القديم ، وتبدأ جديدًا هل يبقى هذا الجديد ؟

- لا يبقى غير وجه الله ؟

- وأين تذهب ؟

- هي تصنع أسسًا ومبادئ قامت من أجلها . ويمضي المؤمنون بها على الطريق ..

- وماذا إذا حادوا وانحرفوا ؟

- تقوم ثورة جديدة .

- أهي سلسلة ؟

- نعم ، إذا لم تستطع الثورة أن ترسي قواعد الحرية والديمقراطية: حرية التفكير وحرية التعبير ، وديمقراطية تبادل السلطة عن طريق صناديق الانتخابات التي تأتي بالأغلبية لتحكم .

- هل حدث هذا مع كل الثورات في التاريخ ؟

- يمكنك دراسة هذا الموضوع .. الثورة الفرنسية مثلًا ، أو ثورة كرومويل في إنجلترا ، أو الثورة الشيوعية في روسيا .. أو الثورة الأمريكية..

- الذي يهمني ما عندنا ..

- هناك ثورة الشعب ضد الحملة الفرنسية .. وثورة عرابي .. وثورة 25 .. ثم ثورة 2011 .. بجانب الثورات العالمية لنقرأ عنها وندرسها ؛ لذلك نرجئها بعض الوقت ولتشرحي لي بكلماتك ما جرى ويجري على الأرض المصرية والعربية ..

ضحكت مريم وقالت : هل أنت جاد يا جدي ؟

- 2 -

عقد الجد ذراعيه على صدره ، واتخذ هيئة التلميذ أمام الحفيدة التي أتت بجهاز الكمبيوتر، وفتحته ، وهي تقول في تؤدة :

- جميل أن يكون لي صديق .. لكن ماذا عن صديق صديقي؟ هل يحق لي أن أتخذه صديقًا ؟ .. لم يطل بي التفكير في الإجابة ؛ لأن هناك من خطر بباله هذا السؤال ، ولم يتوقف طويلًا عنده ، ذلك أنه كان عمليًا ، وقرر فيما بينه وبين نفسه أن ينشئ ناديًا للأصدقاء يضم العشرات منهم تضاعفوا وأصبحوا المئات ، ثم الآلاف .. وكانت مفاجأة له أن تحولوا إلى الملايين بعدها بأيام قليلة .. هم لم يلتقوا ، بالطبع ، من قبل ، لكنهم تلقوا من بعضهم البعض رسائل قصيرة SMS .. كأنما تلقى كل واحد منهم بطاقة الآخر ، وتواعدوا على اللقاء في ميدان التحرير ، يوم 25 يناير 2011 وما تلته من أيام ، والكل مجمع على كلمات :

- مصر .

- ارحل .

- يسقط النظام .

لم يستدعوا أحدًا .. جاء آخرون من تلقاء أنفسهم كهولًا وشبابًا وأطفالًا .

مط البعض شفاههم عندما شاهدوهم على الشاشة الصغيرة ، قائلين:

- شوية عيال .

وإذا بهم «رجال» يهزون قلوب العالم كله ، ويطيحون بواحد من الملوك الذين إذا دخلوا قرية أفسدوها ، ولم يكتفوا به ، وإنما ألقوا في سلة المهملات ولي عهده الذي ظن نفسه وريثًا، وتوالى سقوط كبار ظلوا على مقاعد السلطة طويلًا وكانوا يحسبون أنفسهم خالدين عليها ، ومعهم جالسون على كراسي الثروة ، يجمعونها بالحرام قبل الحلال .

ها هي الثورات تتتابع واحدة بعد الأخرى كالتاءات والدنيا من حولنا تتساءل :

- هل خطر ببال مبتكر الكمبيوتر ، وصانعه ، ومن أنشأ موقع «الفيس بوك» أن هذا كان من الممكن أن يحدث فعلًا في بلد اسمه : مصر ، كسب فيها فعل شبابه احترام كل الدنيا ؟

لقد عرفت الصديق ، وصديق الصديق ، وصديق صديق الصديق ، و... ، و... ، و... ، إنها متتالية عددية ، ويمكن بعد حين من الوقت أن تكتشف أن لك ألفيْ صديق وأكثر .. ما العمل ؟

- 3 -

تسألني يا جدي :

– وماذا عمن نسميهم «الأعدقاء» هي جديدة !! كنا نراهم على الشاشة في ثياب أنيقة ، يتألقون .. ونراها في أبهى أزياء باريس وقد ازدانت بالمجوهرات على صدرها ، وفي معصم يدها ، وأصابعها ، وتتدلى من أذنيها ، وكانت تتساقط من أفواههم ، لؤلؤ الكلمات وزبرجد العبارات .

ونكاد نغلق أعيننا وآذاننا كي لا نرى ولا نسمع .

ورأيناهم – هم أنفسهم – وراء القضبان ، في ملابس المحبوسين ، بيضاء أنيقة ، جالسين إلى دكة خشبية ولا نكاد نصدق .. ونهتف :

– سبحان المعز المذل .

إنني والحفيدة مريم نتابع الشاشة الصغيرة ولا يمكن أن نغادرها، وبالذات أثناء إذاعة نشرات الأخبار وأحيانًا مع «حفلات الكلام» والثرثرة ، وفي بعض الأحيان نرى أحدهم ، ونضحك هي وأنا .. ذلك أن هذا الذي يتحدث كان منذ وقت قريب يمسك بمسبحة ، لا ليذكر الله ، بل تنساب حباتها بين أصابعه وهو يتحدث عن الزعيم وزوجته

وابنهما ، متحدثًا عن جلائل أعمالهم .. ونراه يمسك بنفس السبحة يقدح ولا يمدح ويعدد الأخطاء التي ارتكبوها في حق بلدنا وفي حقنا ، وأتبادل مع حفيدتي نظرات الدهشة ..

– هل بهذه السرعة يتحولون ويتغيرون ؟ كيف نصدقهم ؟

هم فعلًا فرجة ..

– هل من حل معهم ؟

– نعم .. نسقطهم من حسابنا .

– وماذا لو نجحوا في خدعتهم ؟

– ما يخدعون غير أنفسهم .

– لكنهم يركبون الموجة ؟

– قد تغيبهم تحتها إلى الأعماق ..

– أي نعم ، وينطبق عليهم المثل : القافلة تسير ..

– والكلاب تعوي .

– صناع الثورة لا يركبون موجتها ..

وتمضي الثورة قدمًا ..

وتستقر يومًا ، على قدمين وساقين بعد أن حققت هدفًا نبيلًا ..

لا عودة لمن غدروا ببلادهم ..

جيل جديد أمين عليها .

صفحات من التاريخ



- 1 -

في عام 1936 وقع في مصر حدثان كبيران ..

توفي الملك أحمد فؤاد الأول وتولى ابنه فاروق الأول العرش ..

والحدث الثاني وقَّعنا معاهدة 36 مع إنجلترا ..

خرج تلاميذ المدارس في مظاهرات يهتف زعيمهم :

– مات الملك ، عاش الملك .

يردد المتظاهرون : يعيش يعيش يعيش ..

بعد عشر سنوات خرجت مظاهرات تهتف :

– مصر والسودان لنا ، وإنجلترا إن أمكننا .

– الاستقلال التام أو الموت الزؤام .

وكتب التلاميذ على جدران المنازل : ملككم امرأة ..

وسخر التلاميذ العقلاء من هذه الهتافات ، وهتفوا :

– يعيش السمك في الماء .

وردد الصغار : يعيش يعيش يعيش ..

وضحك الإنجليز ، واختاروا لنا الموت الزؤام ، وسألوا :

- ماذا يعني أن ملكنا امرأة ؟

قال التلاميذ : تعني أنه مجرد امرأة ، وهي أقل من الرجل .. وضحك الإنجليز من جديد.

- هل هذا رأيكم في أمهاتكم ؟!

واعتلى الزعيم كتفي زميل له ، وراح يهتف ، وإذا به يسقط تحت أقدام زملائه ، فصعد نائبه وهتف :

- يسقط (المستعمرين) .

وإذا بالزعيم بين الأقدام يصيح فيه :

- يسقط (المستعمرون) ، فاعل مذكر سالم مرفوع بالواو ..

كان حريصًا على اللغة أحرص منه على حياته ..

وكبر الصغار ، واحد منهم أصبح كاتبًا ، وأطلق على هذه الهتافات صفة طريفة ..

- إنها (حنجورية) بمعنى أنها مجرد أصوات تخرج من الحناجر ، لا قيمة لها ولا جدوى منها !

وتعلمنا أن المظاهرات والهتافات لا فائدة لها إذا لم يؤمن بها أصحابها، وإذا اكتفوا بالصراخ ، من الضروري أن يعملوا عملًا جادًّا لكي يحققوها.. لذلك انطلقت صيحة جمال عبد الناصر :

- على الاستعمار أن يحمل عصاه على كتفه ويرحل ، وإلا فإنه عليه أن يقاتل من أجل وجوده ولم تكن له القدرة على قتال شعب أراد الحياة، واستجاب له القدر .

- 2 -

وقامت ثورة 25 يناير 2011 بفضل الكمبيوتر والنت والديـچيتال في صمت ، قبل أن تقوم في ميدان التحرير .. عن طريق شباب رائع يعرف هذه الكلمات ويحسن استخدامها .

لي صديق كان يكتب لي رسائل خاصة على الكمبيوتر ويبعث بها عن طريقه ، سألته أن يكتب بخط يده ، وكان رده أنه يرغب في أن يكون عصريًا ..

كان تعليقي أنه يحوّل الكمبيوتر إلى آلة كاتبة ، وقد غضب أبي القرن الماضي لأن خالي كتب إليه رسالة منسوخة على الآلة الكاتبة .. وأضفت :

- الكمبيوتر خلق عصرًا رقميًا ، وشبكة معلومات (النت) ..

داعبني بتعليقه :

- لا أعرف إلا شبكة صياد السمك !

وإذا بي أتذكر الهتاف للسمكة التي «تعيش» تحت الماء والمثل الشهير القائل :

- تفسد السمكة من رأسها .

وتساءلت : ألا يحدث هذا للإنسان ؟

وهكذا تنقلني الكلمات من أمر إلى آخر ، ومن موضوع إلى غيره ، قد يكون بعيدًا عنه أو قريبًا له ، وأتذكر المثل الياباني :

- إذا جاءك فقير جائع ، لا تعطه سمكة بل علّمه كيف يصطادها ..

وأدرت في رأسي ، فكرة «فساد الرأس» .. وهو يجعل صاحبه مريضًا عليلًا إلى أطراف أصابع قدميه ! ، وتساءلت :

- كيف يكون العلاج . .. هل نبتر رأسه ؟!

لقد فعلها الدب ؛ لكي يطرد ذبابة من على وجه صاحبه .

هكذا تسلسلت أفكاري ، واحدة بعد الأخرى ، بلا تنظيم ، ، ودون ترتيب ، تقودني كلمة من شأن إلى آخر ، مستسلمًا ، تاركًا لها زمامي ، وإن كان هناك من لوم ، فيجب أن أوجهه إلى نفسي ، وجدير بي أن أتوجه لتفكير عميق في أمر السمكة وفسادها من رأسها ، ويحدث لها ذلك إذا ما خرجت من الماء ، وبقيت بعيدة عنه ، وسألت نفسي :

- ماذا كانت نقطة البداية ؟

- آه .. تذكرت ..

كانت البداية فؤاد الأول ، ثم فاروق الأول ، ومن بعده فؤاد الثاني، وأبناء أسرة محمد علي الذين تولوا أمور بلادنا وكانوا على رأسها ، برؤوس فاسدة .. ورحت أستعرضهم واحدًا بعد الآخر .. مرض محمد علي وأثناء حياته تولى ابنه ، ولم يبق طويلًا ، وخلفه «عباس» ، الذي قال عنه معلمي في مادة التاريخ ، وكان اسمه «جمال» الليثي ، الذي كان يقوم بتدريسه بطريقته الخاصة ، أيام الملكية في مصر .

- 3 -

كان «جمال أفندي» يدخل إلينا في حجرة الدراسة ويغلق الباب من ورائه ، ثم النوافذ ، ويحكي :

– اسمعوا ما فعله بائع «الدخان» الذي يقولون عنه إنه باني مصر الحديثة .. اسمه : محمد علي ، اختاره الشعب بقيادة عمر مكرم ليتولى شئون البلاد، وكان أول ما فعله نفي هذا البطل ، وطرده من القاهرة ، و..

وينهال نقدًا وتقريعًا على رأس الأسرة العلوية ، إلى أن ينتصف وقت الحصة ، ويفتح الباب والنوافذ ويضيف :

– وكان محمد علي واليًا حصيفًا بنى بلادنا وكوّن جيشًا قويًا ، حارب به الوهابيين في الجزيرة العربية ، وفي السودان .. وفي الشام ، وتجاوزه إلى قتال العثمانيين في تركيا وكان له أسطول ضخم قاتل به اليونانيين ، و...

ويدق جرس نهاية الحصة ، فيقول :

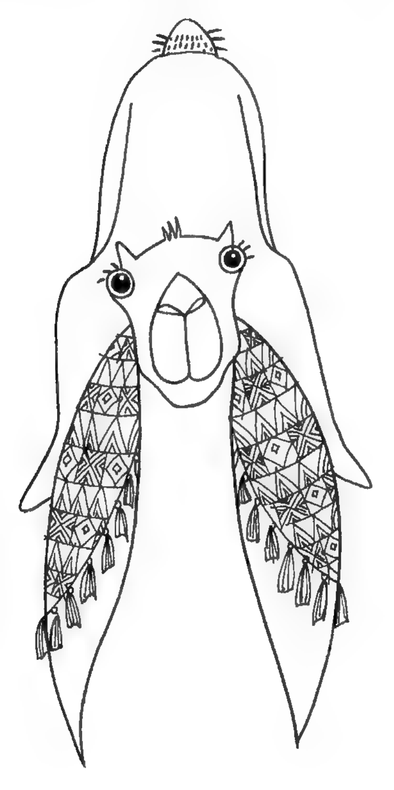
– احفظوا هذا لتنجحوا في الامتحان .. أما الجزء الأول من الحصة فيجب أن تعوه لتنجحوا في الحياة .. وتصونوا بلادكم ..

وفي الحصة التالية يحدثنا عن عباس الأول الذي أغلق المدارس ، والمصانع ، والمزارع ، وعقله أيضًا ، ونفى رفاعة الطهطاوي إلى السودان و.. و.. وفي النصف الثاني يشرح لنا ما هو في الكتاب عنه .

كان معلمًا عظيمًا ورائعًا .



خيبة الأمل راكبة جمل



- 1 -

- عيال ميدان التحرير لابد أن ينفضوا بالكامل ويرحلوا عنه بلافتاتهم وصرخاتهم..

هذا ما قاله رئيس الجلسة الذي استدعى هذه المجموعة من السادة الكبار ، وسأله أحدهم :

- كيف تواعدوا من وراء ظهرنا ؟

- يا سيدي عن طريق ما يسمونه «الفيس بوك» ..

سأله آخر : أهو تليفون خاص ؟

- لا .. هو شيء لم تسمع به حكوماتنا الذكية ..

- ماذا تعني هذه الكلمة « الفيس بوكس» ؟

تصدى واحد من الحاضرين للرد قائلًا :

- اسمه «الفيس بوك» ، لا بوكس .. وكلمه فيس بالإنجليزية تعني (وجه) و(بوك) كتاب.. والعبارة مقصود بها وجه الكتاب وربما عنوانه ، والكتاب يعرف من عنوانه كما يقولون ، هز عدد من الموجودين رءوسهم يعلنون عن الفهم لما سمعوه ، بينما رغب آخرون في مزيد من الإيضاح والشرح فقال أحدهم ..

- سمعت أن هذا «الفيس بوك» في الكمبيوتر .. كيف دخل إليه ، وماذا يفعل فيه ؟

تبادلوا النظرات في غباء ، راغبين فيمن يجيب ..

وساد صمت طال قليلًا ، وقطعه رئيس الجلسة :

- لا يهمنا أن نعرف كيف التقوا ، علينا أن نركز على إفساد تجمعهم وإنهائه بأي شكل .

- أنا معك ، لكن إن عرفنا هذا الشيء ربما يمكننا أن نجعل هذا (الوجه) شوارع ..

ندت ضحكات خفيفة أسكتها الرئيس :

- نحن هنا لطرد هؤلاء العيال من الميدان ونرغب في أن تبتكر عقولكم النيرة طريقة عبقرية ، تريحنا من صراخهم الذي يزعج السكان ويغلق المحلات التجارية ، ويعطل المرور.

- هل تعجز الشرطة عن ذلك ؟!

- هناك نوع من التراخي لا نعرف سببه .

- ربما كان لأن أعدادهم كبيرة .

- أين خراطيم الماء ؟ أين القنابل المسيلة للدموع . وأين العصى الكهربية ؟

- وأين الرصاص المطاطي ، بل وأين الرصاص الحقيقي ، ومتى يستخدمونه ؟

- 2 -

شارك الجميع في النقاش ، ورئيس الجلسة يستعجلهم مطالبًا بمقترحات يمكنهم تنفيذها بأنفسهم ، غير معتمدين على الحكومة ، والشرطة ، والحزب ، و...

– هل بيدنا ما نصنعه ؟

– طبعًا .. في يدنا مال ، ورجال ، المال كثير وهناك من هم مستعدون لتنفيذ ما تأمرون به ، وهم أقوياء ، و..

– كم عددهم ؟

– بقدر ما تحتاجون وتدفعون .

– المهم منعهم من الوصول إلى الميدان .

– لا يستطيع أحد ذلك !

– من يقدر على هذه الأعداد المتدفقة كبحر .

– يجب أن نفكر في الفيس بوكس .

ضحك البعض في بلاهة ..

– أنت غير قادر حتى على النطق باسمه الصحيح ..

– أيًا كان اسمه ، هل يمكن أن نقطع عنه الكهرباء ؟

– هو لا يعمل بها ..

- بم يعمل ؟

- بالبطاريات ..

قال نائب الرئيس مستظرفًا :

- هذا الوجه ، أو الفيس ، يحتاج إلى قلمين .. أو صفعتين واحدة على الخد الأيمن والثانية على الأيسر .

وضجت الجلسة بالضحك .. وقال أحد الحاضرين :

- بحق ، أريد أن أفهم علاقة الكتاب بالوجه ، أو علاقة الوجه بالكتاب .. وعلاقتهما بالكمبيوتر ..

سأل الرئيس :

- هل بيننا من يعرف كيف يتعامل مع الكمبيوتر ؟

رد صاحب البيت : ابني .. عنده سبع سنوات ..

- استدعه ، نسأله ..

جاء الطفل وأفهم الحاضرين أن «الفيس بوك» لعبة على الشبكة: النت، أصدقاء كل منهم يقدم أصحابه للباقين ، ويكثر عددهم ، ويتبادلون الرسائل ..

سأله الرئيس : وأين اللعبة ، ومن يفوز ؟

- الذين يذهبون إلى ميدان التحرير .. والنادي الأهلي ..

عقب الرئيس ضاحكًا :

- ونحن أيضًا سنذهب إليهم ونهزمهم ..

ضحك الطفل ، وقال :

- الكثرة تغلب الشجاعة .. خصوصًا بعد فضيحة الزمالك في استاد القاهرة في مباراة تونس الشقيقة .

- 3 -

أراد الصغير أن ينصرف ، لكن رئيس الجلسة استبقاه مستشارًا ، فهو يعلم عن الكمبيوتر بأكثر مما يعرفون ، وربما أفادهم بفكرة .. وبدأت المناقشات ..

سأله الرئيس :

- كيف نخلي الميدان من الثوار الشباب ..

قال النائب : نلغي هذا الـ .. ما اسمه ؟!

- الفيس بوك ..

كان هذا رد الصغير الذي أضحك الجميع ، وأضاف :

- اجعلوا الشباب يلعب (جيمز) Games ..

قال نائب الرئيس : هي فكرة عظيمة ..

قال الصغير : عندي فكرة أعظم ..

سأله الرئيس في لهفة : ما هي ؟

- ألغوا ميدان التحرير ..

هبت عاصفة من الضحك ، واضطر والده إلى أن يطلب منه أن يغادرهم ، وعندما هدأت الضحكات قال الرئيس :

– يا جماعة ، لا يفل الحديد إلا الحديد .. علينا بطرد هذا الشباب من الميدان .

– كيف ؟ هذا مستحيل .

– بقاؤهم خطر علينا .

– علينا أن نجعله خطرًا عليهم ؟

– هل هذا ممكن ؟

– بالطبع – حاولنا أن نوقع بينهم ولم ننجح ..

– ولن ..

– ماذا لو فوجئوا بهجوم عليهم ؟

– من يقدر على ذلك ؟

– سيارة تدخل مسرعة فتدهسهم ..

سمعهم الصغير من وراء الباب ، ودخل ليقول ما معناه .

– ماذا ؟ تقتلونهم ؟! أليس لكم أبناء بينهم؟! قام أبوه يعيده إلى داخل البيت معتذرًا ، والرئيس يقول :

– لقد جاءتني فكرة رائعة : ما الرأي في أن ندخل عليهم في قلب الميدان خيلًا وبغالًا وحميرًا ..

هلل الجميع ، معلنين عن موافقتهم وارتفع صوت :

– فكرة رائعة يندفع بينهم من يركبون خيلًا وبغالًا وجمالًا ..

هتف نائب الرئيس : سنروعهم ونخيفهم ..

– قد تحدث إصابات .

– هذه ما نستهدفه ..

- 4 -

قال رئيس الجلسة : اصنعوا ميزانية سخية .. كم يحصل راكب الخيل، وراكب البغل ، وراكب الجمل ..

سأل نائب الرئيس : من ممول المشروع ومن مدير الحسابات و ..

غرق الرجل في الأرقام .. كم إيجار الجمل ؟ والبغل ؟ والخيل؟ ومن يركبها ؟!

تم الاتفاق على كل شيء .. التكلفة ليست كبيرة خاصة أن الفكرة (عبقرية) ..

وجاء الجمال والخيل والبغال .. والحمير .. سألهم الصغير :

– لم تذكروا الحمير من قبل ، هل هم الراكبون ؟

ضحك الجميع .. وقال الرئيس :

– سنذهل العالم بما سنفعله ..

قال الصغير :

– سأجلس أمام الشاشة أنتظر هذا المشهد . ربت الرئيس على كتفه :

– سيكون رائعًا ومسليًا ..

سأله الصغير :

- هل تتوقع أن يصاب كثيرون في هذه المعركة ؟

- طبعًا .. المهم ألا يكونوا من الراكبين ..

جلس الكبار أمام شاشة التليفزيون يشاهدون ما يجري وقد راح الفرسان يشقون جموع شباب ميدان التحرير بخيولهم ، وعندما وصل الجمل راحوا يصفقون فرحين مبتهجين ..

وقال الرئيس :

- أنهيناهم .. قضينا عليهم .

لمح الطفل الصغير الشباب يقفزون إلى «الفرسان» فوق خيولهم ويجندلونهم ويسقطونهم على الأرض وينهالون عليهم ضربًا .. ولمح الجمل يولي هاربًا .. راح يضحك ويغني :

- خيبة الأمل راكبة جمل .




هيثم الثائر

قال لي عبر الهاتف ، ذات مساء ...

أنا تلميذك منذ كنت بالمدرسة الإعدادية .. لقيتك في محاضرات لك في مسرح وزارة الشباب ، وفي المعسكرات الصيفية ، وأندية الطلائع ، و.. و.. أريد أن أراك ..

وجاء ..

تساءلت كثيرًا أيام تلك اللقاءات والندوات إن كانت لها جدوى ، وإن كان شيء مما أقوله يصل إليهم ، وهل يا ترى له من بقايا ؟!

أذهلني وهو يذكّرني ببعض مما كنت أقوله وأرويه ، سرني ذلك كثيرًا، وسألته عن عمله ، قال :

- في البورصة ..

انتهزنا فرصة لا أعرف شيئًا عنها ..

وغاب عني بضعة أشهر ، واتصل من جديد :

- أتذكرني ؟

- ما نسيتك قط ، أين أنت الآن ؟

- في ميدان التحرير ، أريد أن أكرر الزيارة ..

- 1 -

ويبدأ يحكي ..

وكنت أحتسي كلماته قطرة قطرة مفتوح الأذنين والعينين ، وأحيانًا مفتوح الفم بدهشة وذهول .. وبين حين وآخر أهتز أو أتأوه أو أصرخ وتتندّى عيناي بالدموع .

– يوم الجمعة 28 يناير مبكرًا أودعت زوجتي وابني ببيت أسرتها، وانطلقت عائدًا إلى بيت العائلة أتناول إفطارًا دسمًا مع أمي ، وأبي ، وأخي الطالب بكلية الهندسة ، لاحظوا شراهة لم يتعودوها ، قلتها :

– قد تكون هذه وجبتي الأخيرة أو الوحيدة .

شهقت أمي ، وسأل أبي : ماذا ؟

– أنا ذاهب إلى ميدان التحرير .

– وأنا معك ..

قالها أخي حادة باترة .. ساد بعدها صمت طال .. على أثره قال أبي :

– تعرفون أني قاتلت في السادس من أكتوبر .. وأديت واجبي ودوري .. وهذا الذي يجري لا يتسق مع ما قاتلت من أجله .. ولا أظنني قادرًا على أن أعترض .. ليكن الله معكما ..

وكان مَنْ وما اعترض طريقنا فوق التصور وأبعد من أي خيال.. وحوش لا آدمية وأجساد كالبغال والجبال ، وهراوات وعِصِيّ في سُمك جذوع الشجر ، وأسلاك شائكة تعلو فوق قامتنا .. خَاصة ونحن بحاجة إلى أن نعبر كباري ، سدت بدُشم من ورائها من يطلقون علينا رصاصًا مطاطيًّا ، أو حقيقيًّا ، ويقذفوننا بقنابل تسيل الدموع والدماء.. إنه الجحيم مفتوح لنا مع كل خطوة والمسافة إلى الميدان كيلو مترات .. كنا نحمي رءوسنا بأذرعنا فتنكسر عظامنا ، وما كنا لنجد موطئ قدم، والطريق يحجبه دخان كثيف ، كل هذا ونحن كتلة تتحرك محاولة أن تكتسح مَنْ وما يحول بيننا وبين أن نزحف .. وصوتنا يجلجل ويعلو على كل الصرخات المدوية ونحن نهتف ، لا من حناجر بل من قلوبنا بصيحة:

- انزل يا مصري .

وما أظن مصريًّا سمعنا إلا ونزل .. لمحنا في شرفة سيدة تجلس على كرسي متحرك ، تشير لنا عليه كأنها تعتذر عن عدم قدرتها على النزول، وراحت تلوّح لنا بعلم في يدها وذراعها الأخرى تشير تجاه ميدان التحرير.. جن جنوننا .. وفقدنا الوعي حينما رأيناها تصاب بطلق .

حتى هي في بيتها وشرفتها لم تسلم من الأذى ..

◆

- 2 -

هل يمكنكم تصور كم اقتضانا لكي نصل الميدان ؟ النهار كله .. ونحن كتل تتلوى في شوارع جانبية لا تحملنا أقدامنا ، وإنما نحن موج دافق ، يتساقط بعضنا ونحاول انتشاله من على الأرض ، ونتركه ملقى على عتبة عمارة ، أو سلم .. وكنا ننحشر في شارع ندخله فلا نجد سبيلًا للخروج منه إلا باكتساح من يسده علينا ..

– انزل يا مصري ..

وتتزايد أعداد النازلين المتدفقين ، يرون الهول لكنهم لا يخافونه نساءً ورجالًا ، شيبًا وشبابًا ، وكنا نشفق على الأطفال الذين احتجزهم أهاليهم فلزموا الشرفات والنوافذ يلوحون ويهتفون ويبكون لأنهم حرموا من أن يكونوا بيننا .. بالطبع ، انفصلت عن شقيقي عند أول منعطف ؛ لأن من المستحيل أن يتلازم اثنان .. ولا تسألني عن خواطري وأفكاري خلال هذا الحشد والحشر وما أظن أن كان له شبيه أو مثيل .. وما يتوارد على أذهاننا سرعان ما يتلاشى ولا يكتمل .. يذهب أدراج الرياح ..

هل قلت : الرياح ؟ أين هي ؟ ما عاد الهواء كافيًا كي نتنفسه ، ليتها تهب ونحن على الكباري أو قرب النيل ، ونتساءل : أين نسماته ؟! وهو يزفر أيضًا ، وغير قادر على التقاط أنفاسه ونحن نتساءل :

- هل نصل ميدان التحرير ؟!

ويلوح سؤال تال :

- وماذا بعد أن نصل ، إن وصلنا ؟ وهل أصبح ذلك - في حد ذاته - الهدف ، وهل هو الهدف الأخير ؟

كانت الرحلة قتالًا ، وتجربة إنسانية تعلمنا خلالها كيف نحمي عيوننا من قنابلهم عن طريق « النحل » ، وتعلمنا أن نمسك العصا حين ترتفع في يد الزبانية فلا يقدر أن ينزل بها على رفاقنا ، وبعضهم انتزعناه منهم تجرد من ثيابه وصار منا ، ولعل أطرف ما صنعناه أننا بعد اجتياز كوبري قصر النيل رحنا ندق على السور الحديدي الذي يفصل بين جانبي الشارع بعنف إلى أن أصبنا الشرطة - قطاع الطريق - بالصمم ، فما كان منهم إلا أن هربوا ، واختفوا من الميدان مع الساعة الرابعة بعد الظهر ، وقد اكتظ المكان بمن فيه وفاض بهم إلى الشوارع الجانبية ، بل تسلق البعض وأنا معهم أعمدة الإنارة لعلنا نقدر على أن نحظى بنسمة عابرة قادمة من النيل .. اقتحمنا الميدان وصرنا في قلبه ...

◆

- 3 -

– وماذا بعد ؟

ما من مبالغة قط إذا قلت لكم – وربما أقسمت – إن صوت هتافاتنا قد وصل إلى السماء ، والكواكب ، والنجوم ، وأيضًا إلى كل الدنيا ، شرقها وغربها ، وشمالها وجنوبها .. قد يخطر سؤال أو عدة أسئلة :

– ماذا عن الطعام والجوع والمعدة الفارغة ؟ ماذا عن الماء والعطش ؟ وماذا عن الحاجة إلى الذهاب إلى .. الحمام ؟ وما بالنا بالعودة إلى البيوت؟ ما السبيل إلى أن نطمئنهم إلى أننا ما زلنا أحياء ، بل وأننا قادرون على أن نقف على أقدامنا ؟

* * *

أفاق هيثم .. تنبه إلى أنه ظل يحكي ويحكي .. وإلى أنني أتابع في صمت، وكأني قد تلاشيت ... تمتم :

– آسف ، أطلت .. هل أمللت ؟

– لا لا .. واصل وتدفق كجموعكم في طريقها إلى ميدان التحرير .. شكرًا أن جعلتني أعيش التجربة ، كم تمنيت لو كنت معكم .. كنا نرى الميدان مزروعًا بكم ، مغطى، ولا نعرف « النزهة » التي قمتم بها لكي

تصلوا إليه .. وكنا نراكم ونسمعكم ونحبكم ، وبعضنا ظن أنكم يمكن أن تخرجوا علينا من الشاشة . لكنك بحديثك قد جعلتني أعيش الثورة.. لقد فاض الميدان بمن فيه ليحتل قلب المدينة ، بل قلب مصر ، وقلب العالم .. وإني لأتساءل :

- هل حدث هذا فعلًا ؟ تراها حكاية من خيال ؟

قال هيثم : ما أظن أن الخيال يمكن أن يذهب إلى هذا المدى ، وأظن أن رحلة الخروج من الميدان إلى البيت كانت مروعة ، وأشد هولًا .. إنني عندما التقطت هاتفًا على بعد كيلو مترات من الميدان لأطمئن أسرتي ، وهتف أبي :

- أمازلت حيًّا ؟ .. الحمد لله .. أخوك لمحك في الميدان ..

ولا يفوتني أن أذكر أن هتافنا تحول من :

انزل يا مصري ، إلى « ارحل » .. يا .. وقد رحل بها أعف عن النطق به، وأتركه للتاريخ سبة في جبين مصر ، والعروبة ، والإسلام ، والإنسان في كل زمان ومكان ..

◆



المحتويات

عظيمة يا مصر

" هل خطر ببال مبتكر الكمبيوتر ، وصانعه ، ومن أنشأ موقع " الفيس بوك " أن هذا كان من الممكن أن يحدث فعلاً في بلد اسمه مصر ، كسب فيما فعل شبابه احترام كل الدنيا؟ ".

قد نصادف في حياتنا عجائب لم تكن في الحسبان ، وغرائب لا نستطيع لها تفسيرًا ، لكن ما حدث في بلدنا لم يكن مصادفة ، وإنما كان يقينًا راسخًا يُرَدِّدُ في سمع الدنيا أنه بلد العزة والكرامة ، فترد الدنيا صدى صوتنا ؛ لتقول : " عظيمة يا مصر ".



تصميم ورسوم : هنادي سليط

9 789774 277061